

الفصل الرابع عشر

نظرة عامة

الحكومة — الإيرادات — الإدارة — الخدمة العسكرية — إصلاح
العملة في خلافة عبد الملك — دمشق — الحياة في البلاط — الحياة
الاجتماعية — مركز المرأة — نظام الحريم — للاباس — العادات —
الأديان — الفرق الدينية والفلسفة

الحكومة
٤٠-٨١٣٢
٦٦١-٧٥٠ م

كان الخليفة في أيام الجمهورية ينتخب من قبل أهل المدينة بالإجماع دون أن يعترض العرب في الخارج على هذا الانتخاب ، كما كانت مراسم البيعة تقام في المسجد الجامع ، حيث كان المسلمون يجتمعون في حشد حافل ليبايعوا الخليفة ويماهدوه على الطاعة والولاء . ولكن الخلفاء منذ أن اعتلى معاوية كرسى الخلافة طفقوا يمينون أولياءهم عهدهم الذين كان الأشراف ورجال الدولة وقادة الجيش يحلفون لهم يمين الطاعة في احتفال رائع يحضره الخليفة نفسه ؛ كذلك كان الأمراء والولاة يأخذون البيعة في أهل الأمصار التي يحكمونها — للأمير الذي كان الخليفة يرشحه لولاية العهد .

وهكذا أصبح هذا النظام ، نظام البيعة بولاية العهد ، يجمع بين مساوى الديمقراطية والأوتوقراطية دون أن يستفيد من مزايا إحداها . أما موازنة الشعب فكانت تقتصب اغتصابا ، سواء بطريق القوة أو التملق أو الرشوة ؛ ولكنها كانت بعد إجراء المراسم المعتادة تصبغ الانتخاب بالصبغة الشرعية .

وكانت الخزينة العامة^(١) في خلافة أبي بكر وعمر وعلى تعتبر ملكا للشعب وكان كل فرد من أفراد الإمبراطورية الإسلامية ينال مرتباً معيناً من خزينة

(١) ونسى بيت مال المسلمين .

الدولة التي أصبحت منذ قيام الحكومة الأتوقراطية في عهد معاوية ملكاً خاصاً للخليفة . ولهذا نجد « معاوية » يولى « عمرو بن العاص » مصر ويهبه خراجها مكافأة له على حسن بلائه في الخلاف الذى نشب بينه وبين الإمام على . أما الإيرادات في مصر الأموى فكانت تنجى من نفس المصادر التي كانت تنجى منها في زمن الجمهورية وهي :

الإيرادات

(١) الخراج .

(٢) ضريبة الأعناق .

(٣) الزكاة .

(٤) الجمارك والكوس .

(٥) الجزية .

(٦) الأخماس (خمس النىء) .

ولما كان البدء السائد وقتئذ هو اللامركزية ، فكانت كل ولاية تصرف إيراداتها على مراقبتها الخاصة ، كدفع رواتب الأجناد وأرباب المعاشات وإنشاء الطرق وحفر الجداول وتشديد المؤسسات العامة كالجامع والمدارس ، ثم ترسل ما يتبقى بعد ذلك إلى الخزينة العامة . وكانت الجباية تعتبر ضمن واجبات العمال الذين كانوا على ما يظهر يجمعون بينها وبين وظيفة الأصلية . أما الولاية فكانوا إذا ما جمعوا بين وظيفة الأصلية وبين وظيفة صاحب الخراج ، وخاصة بعد خلافة « عمر الثاني » ، يدعون مهمة التحصيل إلى كتابهم الذين كانوا بطبيعة الحال يمنحون إلى ابتزاز أموال الرعية ، ويعرضون أنفسهم للعقاب ولتصفية أملاكهم ، كذلك كان الخلفاء وأفراد الأسرة المالكة يخصصون أنفسهم بالضيااع الشاسعة . وكان الناس إلى خلافة « الوليد الثاني » يبذلون قصارى جهودهم في ترقية الزراعة واستثمارها . ولكن حدث في خلال الحروب الداخلية — التي سبقت ارتقاء « عبد الملك » كرسى الخلافة — أن أهملت جميع أعمال الري

العظيمة وطمست معالمها ؛ كما استحالت المزارع الخضراء إلى أرض بلقع ومستنقعات آسنة . ويقال إن « مسلمة » أخاهشام كان قد استصلح معظم أرض السواد (وادى الفرات الأسفل) وجعلها تنبض بالقوة والحياة .

أما الضرائب فلم تكن في جميع أنحاء الإمبراطورية وفق مقياس واحد بل كانت تختلف باختلاف الظروف والامتيازات التي كانت تمنح فيها ؛ كذلك كانت تجرى من حين لآخر بعض المحاولات لنقض تلك المهود ، ولكنها كانت في أغلب الأحيان تنتهي بنشوب الفتن وشق عصا الطاعة .

كانت الإمبراطورية مقسمة إلى خمس إمارات كبرى يحكم كل واحدة منها أمير مرتبط رأساً بالخليفة وهي :

(١) الحجاز واليمن وأواسط جزيرة العرب .

(٢) مصر العليا والسفلى .

(٣) العراق : عراق العرب (بابل القديمة وكلمة) وعراق المعجم ، وعمان والبحرين وكرمان وسوستان وكابول وخراسان ، وسائر أنحاء ما وراء النهر والسند ، وبعض أقسام البنجاب . وقد كانت جميعها تؤلف إمارة شاسعة الأطراف ، ويحكمها أمير العراق وحاضرتة الكوفة وتتبعها :

١ - خراسان وحاضرتها مرو .

ب - عمان والبحرين ، ويحكمها عامل تحت إشراف والى البصرة .

(٤) الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان ، وبعض أقسام آسيا الصغرى .

(٥) إمارة أفريقية : وهي أهم الإمارات على وجه الإطلاق ، وتشتمل على شمالى أفريقيا حتى حدود مصر الغربية وأسبانيا وجنوبى فرنسا مع جزائر صقلية وسردينيا وجزائر البلاك ، وحاضرتها القيروان وتتبعها :

١ - جزائر البحر الأبيض المتوسط .

ب - الأندلس وحاضرتها قرطبة .

وكان الوالى أو الأمير هو المهيمن على الإدارة سواء أكانت عسكرية أم سياسية ، إلا أن أعمال الجباية كانت تناط فى معظم الأوقات بموظف يطلق عليه اسم « صاحب الخراج » ، الذى كان يقوم بمهام وظيفته مستقلاً استقلالاً مطلقاً عن الأمير ، كما كان يجرى تعيينه رأساً من قبل الخليفة ؛ أما قضاة المدن فكانوا يتمتعون بحق تعيين وكلائهم ، فى حين كانت مشاكل الطوائف غير الإسلامية يفصل فيها أحكام من طوائفهم أو رؤسائهم الدينيين . ولا بد أن نشير هنا إلى أن إمامة الصلاة — وهى من أهم الوظائف على وجه الإطلاق — كان يقوم بها الأمير أو القاضى الأكبر بالنيابة عن الخليفة .

وكان رئيس الشرطة أو « صاحب الشرطة » — كما كان يسمى فى ذلك الحين — يقوم بمهام وظيفته تحت إشراف الأمير أو الوالى . ويقال إنه فى أوائل عهد « هشام » تألفت قوة جديدة سميت بالأحداث ، وهى أشبه فى الوقت الحاضر بفرقة المليشيا أو « الرديف » وتعتبر خطوة وسطى بين الشرطة والجندية .

ديوان الخاتم

ومما يؤثر عن « معاوية » أنه شكل دائرة تسمى « بديوان الخاتم » للقضاء على أعمال التزوير من جهة ، وتمهيداً للمكاتبات بين الخليفة وبين عماله فى سائر أنحاء الإمبراطورية من الجهة الأخرى ، وبذلك أصبحت الأوامر والرسائل لا تصدر عن بلاط الخليفة إلا بعد أن تسجل النسخة الأصلية فى سجل خاص وتختتم بخاتم الخليفة نفسه ؛ كذلك يقال إنه أسس نظاماً بريدياً بلغ فى العهد العبّاسى درجة عالية من الرقى والكمال . ولا يفوتنا أن نذكر بهذا الشأن أن سياسة الأمويين فى المشرق لم تصطبغ بصبغتها النهائية إلا فى عهد « عبد الملك » الذى وجهها الاتجاه الذى عرفت به فيما بعد ، فنهى عن استخدام غير العرب فى الوظائف الرسمية بنية إنقاذ الدولة من النفوذ الأجنبى ، غير أن الحجاج المشهور راح يتوسع فى تنفيذ تلك الأوامر إلى أبعد مدى فى العراق ، حتى إنه لم يكتف باقصاء الذميين عن الخدمة العامة فحسب ، بل راح يقصى أيضاً المسلمين غير

العرب عن وظائف الدولة، وقد أدت به هذه المغالاة إلى أن يفرض ضريبة الأعناق على أولئك الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً في ذلك الوقت، غير أن تلك السياسة المتطرفة فشلت في الواقع فشلاً تاماً، إذ لم ينقض طويل وقت حتى أعيد استخدام عدد كبير من الفرس والنصارى في مناصب الدولة الصغرى، ولكن هذه السياسة مع ذلك لم تزد أن تترك أسوأ الأثر في عهد «مروان الثاني».

أنشأ «عبد الملك» نظامين مهينين أملتهما عليه سياسة الحكمة وبعد النظر، فالمعروف أنه لم يكن في البلاد الإسلامية إلى ذلك الحين نقد معترف به في جميع أنحاء الإمبراطورية، بل كان لأمراء الولايات مضارب خاصة يسكون فيها العملة حسب احتياجاتهم، ولهذا كانت قيمة النقد غير مستقرة البتة، الأمر الذي كان يشجع على التزييف والتلاعب. ومع أن العملة البيزنطية والفارسية كانتا متداولتين بجانب العملة المحلية، إلا أن توسع أطراف الإمبراطورية وتقدم التجارة أدباً إلى وضع أساس ثابت للنقد، فأنشأ «عبد الملك» داراً جديدة للمسكوكات، كما أمر بسحب النقد المتداول على أنواعه من الأسواق والاستعاضة عنه بنقد جديد من الذهب. ويقال إنه اعتمد في إصلاحه هذا على مزيج من الفئات الرومانية والساسانية، جاعلاً الصلدى الروماني أساساً للعملة الذهبية، والدرهم — الذي أوجده عمر بن الخطاب — أساساً للعملة الفضية، كذلك جعل التزييف جريمة يعاقب عليها عقاباً صارماً.

استعمال اللغة
العربية في دوائر
الحكومة

أما الإصلاح الثاني الذي أدخله في الدوائر الحكومية فلم يكن ليقل شأنًا عن الإصلاح الأول، إذ كانت حسابات الدولة قبل عهده تكتب بالفارسية أو اليونانية أو السريانية، الأمر الذي كان يغري صفار الموظفين بارتكاب أعمال التزوير والتلاعب في السجلات، ولهذا أمر بنقلها إلى اللغة العربية. كذلك كانت جميع وظائف الدولة قبل أن يعتلى «يزيد الثاني» عرش الخلافة لا تسند إلا لأولئك الذين اشتهروا بالمرونة السياسية والحكمة الإدارية، أو الذين أدوا

خدمات جليلة لمقام الخليفة أو لأسرته . ولكن المحسوبة لم تلبث أن تفلقت في جسم الدولة في أيام « يزيد الثاني » حتى غدت عاملاً أساسياً للترشيح دون أخذ الأهلية بنظر الاعتبار ، ويقال إن هشاماً نفسه لم ينبج من تلك المؤثرات ؛ كما ظهرت في ذلك الحين بادرة أخرى نجم عنها أسوأ النتائج ، وهي أن الموظفين — الذين كانت أعمالهم الرسمية تتطلب الإقامة في الحواضر — راحوا يهجرون مراكز أعمالهم وينزحون إلى العاصمة للتمتع بمباهج المدنية ومسراتها ، تاركين زمام الحكم وتسيير دفة الأمور إلى وكلائهم الذين اتخذوا تلك الفرصة سبيلاً لاقتزاز أموال الدولة والجنوح إلى الرشوة والاختلاس .

وعلى الجملة كانت الإدارة الحكومية في العصر الأموي ذات صبغة بدائية فلم تكن قد عرفت بعد تلك القوانين الذي وضعت في العهد العباسي ، كذلك لم تكن قد فصلت الواجبات بدرجة تساعد على رفع مستوى الكفاية ؛ وفيما يلي نورد أسماء الدوائر التي كانت تضطلع بمهام الإدارة وهي :

(١) ديوان الخراج ويشبه وزارة المالية في العصر الحاضر .

٤٠-٨١٣٢

(٢) « الخاتم وهو الديوان الذي كان يقوم بوضع أنظمة الدولة ، وكانت الرسائل تختم فيه بخاتم الخليفة .

(٣) ديوان الرسائل وهو الديوان الذي كان يهيمن على شؤون الولايات ، وتصدر عنه الرسائل إلى الأمراء والعمال .

(٤) ديوان المستغلات^(١) أو مجلس الإيرادات المتفرقة .

أما الخدمة العسكرية فكانت إجبارية على جميع العرب الذين كانوا ملزمين بالانضواء تحت لواء الجيش في أوقات معينة من السنة ؛ وكان الجندي وهو في ميدان القتال يتناول مرتباً أكثر مما كان يتناوله عادة وهو في الاحتياط ،

(١) يقول ابن حوقل : « يراد بالمستغلات ما يجبي لبيت المال من أسواق أو منازل أو طواحين ابتناها الناس في أرض السلطان فيؤدى عنه أجرة . (العرب)

ولكن الأرزاق كانت تصرف له قامة غير منقوصة طوال أيام السنة ؛ وسنوفى هذا الموضوع حقه من البحث عند الكلام عن العباسيين حين يكون نظام الدولة قد بلغ درجة عالية من الكمال . وقبل أن نختم هذا البحث لا يفوتنا أن نشير إلى أن رئيس الأسطول البحرى كان يطلق عليه اسم « أمير البحر » .

كان العرب يشيدون الأسوار حول المدن لصد هجمات الأعداء ، كما كانوا يخصصون لكل صناعة بضعة شوارع على حدة تسمى بأسمائها ؛ وحقيق بنا أن نذكر أن تقسيم المدن إلى أحياء لم يجر على أساس الحرف ، إذ كان العرب يعمتون المركزية مقتاً شديداً ، ولهذا كانوا يتجمعون أينما حلوا حسب تقسيمهم القبلى ، فكان لكل عشيرة حى خاص يضم منازلها وجوامعها وأسواقها ومقابرها ولا يخفى أنه كان لهذا التجمع مساوئ عديدة ، أهمها أنه كان يساعدهم على التمرد والعصيان . ولما كانت تلك الأحياء تقوم مقام المدن الصغرى ، فقد أمرت الحكومة أن يفصل بعضها عن البعض الآخر بأبواب متينة يقوم على حراستها جنود أشداء لمراقبة الرائيحين والغادين ، ولا سيما فى المزيغ الأخير من الليل ، ويقفلونها عند نشوب الفتن الداخلية فتقطع بقفلا المواصلات بين أحياء المدينة .

كانت دمشق قبل أن يحتلها المسلمون مدينة زاهرة عامرة ومقرا للحاكم الرومانى ، كما أصبحت فى العصر الأموى حاضرة الإمبراطورية الإسلامية ومن أجمل مدن العالم على وجه الإطلاق ، فجلت بالمآثر الفخمة والقوارات البديعة ، والملاهى الفاتنة ؛ وكان أول ما شيد فيها الأمويون هو القصر المعروف بالخضراء الذى استمد اسمه من لون زخرفته ونقوشه . ومما هو جدير بالذكر أن أخلاف معاوية ابتنوا فيها الحصون النيعمة ، والقلاع ذات القبب البيضاء ، والقصور المنيفة الذرى ، والجوامع الفخمة ؛ والمآثور أن « الوليد » جعلها حى وضواحيها بالمآثر الفخمة والمنشآت النفيسة ، وابتنى فيها جامعاً سيخلد اسمه على كر الدهور وصر العصور ، وهو الجامع الأموى المعروف .

٦٦١-٧٥٠

دمشق

الموصل

بيد أن الشغف بالبناء لم يقتصر على الخلفاء وحدهم ، بل شمل أيضاً أفراد الأسرة المالكة وكبار رجال الدولة الذين أخذوا يتنافسون في تجميل عاصمة الخلافة وحواضر الأمصار .

ويقال إن الحر^(١) الذي حكم مدينة الموصل^(٢) إحدى عشرة سنة في عهد هشام أسس فيها مدرسة وقصراً^(٣) منيف الذرا أبدى الفنانون في بنائه كل مهارة وإبداع ، فشيده بالرخام الأبيض المصقول كما زخرفوه بالحجارة المنقوشة بالألوان ، وركزوا سقفه على دعائم وأكتاف من الخشب الهندي المموه بماء الذهب ، ولهذا سمي بالمنقوشة . والمأثور أنه لما بلغه ما يعانيه أهل الموصل من المشاق في الحصول على مياه الشرب أمر بشق جدول لا يزال أثره باقياً حتى اليوم بالرغم من تقادم العهد ومضى مئات السنين ؛ كذلك غرس الأشجار الوارفة على جانبي الطريق بحذاء ذلك الجدول لكي يسير فيه سكان المدينة في الأماسى ترويحاً للنفس واستنشاقاً للهواء العليل .

مياه العرب في
مدينة دمشق

أما نظام مياه الشرب في الشام فقد فاق أمثاله في الشرق ، بحيث أصبح أثر خالد أيشيد بذكر الخلفاء الأمويين على مدى العصور وكر الدهور ، ومع أن نهر بردى كان يجهز المدينة ولا شك بالمياه الكافية ، إلا أن الأمويين أبدوا مهارة منقطعة النظير في تجهيز حتى أحقر دور المدينة بأحواض خاصة تنبثق منها المياه الصافية ؛ كما حفروا سبعة جداول رئيسية تنساب في أنحاء المدينة علاوة على المجارى العديدة الأخرى التي كانت تربط كل منزل بالمجرى الرئيسى .

قصر الخلافة

وكان قصر الخلافة مزخرفاً بالذهب الوهاج والمرمر الناصع ، تكتنفه من

(١) إن أبا الحر هو يوسف حفيد الحكم من الأسرة الأموية .

(٢) توفي فيها أبو تمام حبيب الطائي ، ومنها ابن جني الموصل وأبو إسماعيل الطبراني وابن الطقطقي وبهاء الدين بن شداد ، وأبناء الأثير الثلاثة ، والشاعر السرى الرقاء .
(العرب)

(٣) يقول ابن الأثير : يقع هذا القصر بالقرب من سوق السروجية وهو في حالة مهلة وقد تداعى معظمه .

كل صوب الحدائق الوارفة الظلال ، التي تفرد على أشجارها الأطيوار الجميلة بأصواتها الشجية ؛ كذلك كانت أرض القصر مزخرفة بالفسيفساء ، كما كانت الغرف مطلية بماء الذهب ومرصعة بالجواهر الثمينة . وكان من المألوف أن يشاهد المرء عبيد القصر يفدون ويروحون في الأبهاء وقد ارتدوا أنغر الخلل بأبهى الألوان . وكانت الحفلات الخاصة في عهد هشام تقام في البهو الفسيح المباط بالمرمر المشدود بالأسلاك الذهبية ، والفروش بالطنافس الحمراء المنوشة بالذهب . وكان الخليفة يحضر بنفسه تلك المآدب الحافلة متشعراً بالملابس الحريرية الحمراء ومتضمخاً بالمسك والعنبر .

٧٥٠-٦٦١

وكان لمدينة دمشق ستة أبواب^(١) شاهقة ترى من بعيد . وعند ما غزا العرب بلاد الشام لم يكونوا قد أوجدوا بعد طرازاً معمارياً خاصاً بهم ، ولكنهم سرعان ما أنشأوا نمطاً على جانب عظيم من الروعة والجمال بزوا فيه كلا الطرازين الفارسي والبيزنطي . ومما لا شك فيه أن الطراز المماري لأى شعب من الشعوب يستمد ميزاته من خصائص الوطن الأصلي لذلك الشعب وأحوال معيشتة البدائية ولهذا نلاحظ في رسوم الأقواس والأعمدة والمناظر والقباب المستعملة في الفن المماري العربي تشابهاً قوياً مع تقوس وتقيب أحواش النخيل المحببة إلى قلوب العرب . وقد كانت منازل أهل الشام تشيد في مبدأ الأمر على الطراز الرومانى في حين كانت البيوت العراقية مطبوعة بطابع الطراز الفارسى ، وبرغم مضى الزمن لم يحدث أى تأثير يذكر على نمط البناء ولا على تقسيم المنازل ، فكانت توجد أمام كل باب من بيوت الأثرياء دكة حجرية أو خشبية يجلس عليها البواب ، وكان يستعاض عن هذا النظام في منازل الفقراء بحلقة معدنية أو حديدية تعلق على الباب لكي يدقها الطارق . وكان الدهليز يؤدى إلى صحن مستطيل تحيط به أبهاء ذات أعمدة تكتنفها أرصفة من الحجر أو المرمر أو الحصاء منضدة على

(١) باب الفردوس ، باب الجاية ، باب المرقية ، باب توما ، باب الصغير ، باب قيسان .

شكل هندسى رائع . وكانت الفوارات تتوسط الحديقة ذات الحائل المتشابكة والورود الزاهرة ، وكان أحد جانبي البهو يطل على صالة مبلطة بالمرمر أو الحجارة الملونة ، وتستعمل فى الصيف كثنى للأضياف . أما منازل الأغنياء فكانت تتألف أحياناً من طابقين كما كانت تشتمل على أبهاء عديدة عن يمينها وشمالها أبواب عدة ذات ستائر كثيفة تفتح على نوى الأضياف وغرف السكنى . وكان الإيوان وسائر الغرف تفرش فى الشتاء بالطنافس الفاخرة ، وفى الصيف بالحصر الغالية ، كذلك كانت تدور حذو الحيطان رفوف مصفوف عليها أثمن التحف وأجملها ، أما السقوف فكانت مزخرفة بالنقوش العربية المطلية بماء الذهب . وفى الشتاء كانت المواقد تستعمل لتدفئة الغرف ، فى حين كانت الفوارات والنوافذ تساعد على تلطيف حرارة الجو فى فصل الصيف .

حياة البلاط

وكان أمير المؤمنين — على ما جرت به العادة — يوم المصلين يوم الجمعة وسائر أيام الأسبوع . والمأثور أن معاوية ، وعبد الملك ، وعمر الثانى كانوا يواظبون على أداء هذا الواجب بانتظام تام ، غير أن الخلفاء الآخرين وإن لم يحضروا الصلاة اليومية كانوا يكتفون بحضور صلاة الجمعة فى المسجد الجامع لإلقاء الخطبة . وكانوا فى تلك المناسبة يتشعرون بلباس بيضاء ويتعممون بعمامة بيضاء أيضاً منضدة بالجواهر الثمينة ، ولم يكن ثمة شعار لهذا المنصب الخطير سوى خاتم النبى (ص) والقضيب^(١) . وكان الخليفة بعد الصلاة^(٢) يرتقى المنبر لإلقاء خطبة الجمعة ، واسكن « يزيداً » كثيراً ما أناب عنه صاحب الشرطة فى إلقاء الخطبة وإمامة المصلين . وكان الخلفاء يفتلون فى القضايا الخطيرة التى

(١) كان الخليفة يرتدى حين صلاة الجمعة أو أيام الأعياد الرسمية « البردة » وهى ثوب كان يلبسها الرسول . وقال ابن الأثير : « شملة مخططة وقيل كساء أسود مربع فيه صفر » . (المغرب)

(٢) الخطبة فى الجمعة قبل الصلاة لا بعدها إلا فى صلاة العيدين . (المغرب)

هى من اختصاص حاكم التمييز فى العصر الحاضر ، ويستقبلون أشرف الدولة والسفراء .

وكانت حفلات الاستقبال على نوعين : عامة وخاصة ، وفى العامة كان الخليفة يجلس على العرش فى صدر قاعة الاستقبال ، بينما كان يقف عن يمينه أمراء الأسرة المالكة ، وعن يساره كبار الموظفين ورجال الدولة ، وأمامه أعيان الأمة ووجهاءؤها وممثلوها الذين كان يسمح لهم بالدخول والسلام عليه ، ومن جلتهم رؤساء الحرف والشعراء والفقهاء ومن إليهم ، أما الحفلات الخاصة فكانت تقتصر على أفراد البيت المالك وكبار موظفى الدولة والبطانة الذين أصبحوا بحكم العادة من غير أفراد الأسرة المالكة . وفى مثل تلك المناسبات كان الخلفاء يتأقنون فى ملابسهم جد التأقن : وقد قيل إن الوليد الثانى كان يتشح بالأثواب الحريرية المشجرة والموشاة بالقصب والسراويل المصنوعة من الحرير والدمقس .

وكان الخلفاء الأمويون والأولون يزجون معظم أوقات الفراغ بالاستماع إلى أخبار الحروب وقصص الأبطال وأعمال الفروسية والبطولة فى زمن الجاهلية وصدر الإسلام . وكان الشعراء يقدون عليهم لينشدوا بين أيديهم القصائد التى كانوا يسبحون فيها بحمدهم ويتغنون بكرمهم . أما الخمر فلم يدخل القصور الملكية إلا فى عهد يزيد الأول الذى كان يتجاوز فى شربه حد الاعتدال ، والمعروف أن مجالسه كمجالس يزيد الثانى والوليد الثانى مجالس معاقرة أكثر منها مجالس أنس وطرب . كذلك لم يطل الزمن حتى أدخلت الموسيقى والفناء فى مجالسهم الخاصة ، وأصبح أشهر الغنيين والموسيقين يقدون على دمشق من مكة والمدينة وطى الفن والموسيقى وقتئذ . ولم تكن لعبتا الترد والشطرنج منتشرتين بعد ، غير أن الأولى كانت هى ولعبة الورق غير مجهولتين فى قصور الخلفاء والأمراء .

ويقال إن هشاماً كان أول من أسس حلبة السباق لتحسين نسل الجياد ، وكان من المؤلف أن يتسابق فى تلك الحلبة زهاء الأربعة آلاف من الجياد

الصفائف التي كان بعضها يجلب من الاصطبلات الملكية والبعض الآخر من اصطبلات الأعيان والأمراء مما لم يسبق له مثيل قط .

وتقول لنا الرواية العربية إن حب الموسيقى بدأ في عهد « الوليد الثاني » يتطور إلى شغف مفرط ، وأضحت الأموال الطائلة تنفق من غير حساب على مشاهير المغنيين والموسيقيين الذين كان يؤتى بهم إلى البلاط من أقصى أنحاء الإمبراطورية ، فنجم عن توافد الطبقات الحفيرة إلى العاصمة لمباشرة حرفتي الرقص والغناء انحطاط الحياة الاجتماعية وإقصاء الخرائر بالتدريج .

ويقول مؤرخ مشهور ^(١) : « إن نظام الحریم لم يعمل به قبل خلافة « الوليد الثاني » الذي أدخل في قصره نظام الخصيان تشبهاً بالبيزنطيين ، وقد أخذت تلك الحلوقات المنكودة الحظ منذ ذلك الحين تلعب دوراً خطيراً في بلاط الحكام الشرقيين بصفة كونهم خداماً أمناء ، وحراساً مخلصين على شرف الحریم » . وكان اقتناء الخصيان عادة شائعة عند اليونان ، بيد أن الجاحظ ^(٢) أشهر أدياء ذلك العصر وأحد رجال المعتزلة في القرن الثالث الهجري ، حمل على تلك العادة حملة شعواء بأسلوبه اللاذع ، ولكنها كانت مع ذلك قد تأصلت في البلاط الأموي برغم سخط فقهاء المسلمين واستنكارهم .

كما أخذ الأمويون عن البلاط البيزنطي تلك العادة السيئة عادة اقتناء الخصيان لاستخدامهم على الأخص في القصور ، كذلك اقتبسوا بعض العادات الاجتماعية التي كانت شائعة في ذلك الحين بين الفرس ، ومنها شرب الخمر الذي

الموسيقى

اقتباس العوائد

(١) فون كرامر .

(٢) هو أبو عثمان عمرو السكاكيني المعروف بالجاحظ البصري صاحب التصانيف في كل فن ، ولما نسب الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة ، وكان تلميذ أبي إسحق إبراهيم ابن سيار البلخي ، ومن أحسن تصانيفه وأدتها كتاب الحيوان فلقد جمع فيه كل غريبة ، وكذلك كتاب البيان والتبيين ، وكانت وفاة الجاحظ سنة خمس وخمسين ومئتين بالبصرة ، وقد نيف على ٩٠ سنة (ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٨) . (العرب)

عم استعماله فيما بعد ، كما أخذت النساء يستطعن احتساء نوع من الشراب المبرد بالثلج ؛ ولا ننسى أنه لا يزال يباع إلى اليوم في أسواق دمشق وبيروت باسم « الجلاب » . ويقول لنا المؤرخون : إن نساء الأسرة المالكة أولمن بهذا الشراب ولعاً شديداً ، ورحن يتساقينه في كؤوس من الذهب والبلور ، وقد اشتهرت أم حلیم « زوج هشام » خاصة بشغفها بهذا الشراب .

أما يزيد الأول ثانی الخلفاء الأمويين فكان يعاقر الخمر كل يوم كأنه يقلد بذلك بعض ملوك الفرس القدماء ، ولهذا لم يكن ليرى في محوه إلا قليلاً ، كذلك كان « عبد الملك » يحتسيها بإفراط مدهش مرة في الشهر ، غير أنه كان يتداوى بجمرة منها في صباح اليوم التالي كما كان يفعل ملوك الرومان لكي تذهب عنه خمارها ودوارها .

أما الوليد الأول فكان يعاقرها مرة كل يومين في حين كان أخوه يزيد الثاني وابن أخيه الوليد الثاني يحتسيانها على الدوام . وثمة ثلاثة ^(١) من الخلفاء الأمويين لم يشربوا الخمر قط وهم : عمر الثاني ، وهشام ، ويزيد الثالث . أما مجالس الشراب في قصر الخلافة وفي قصور العطاء فكانت تصحبها الموسيقى والغناء فيزيدان في روعتها وبهجتها . كذلك جرت العادة في تلك الليالي أن يضرب ستار شفاف في وسط البهو لإخفاء شخص الخليفة والجلساء الذين كانوا يشاربونهم عن أعين المغنيين والموسيقيين وسائر الندماء .

النساء ذكرنا فيما سبق أن عادة عزل النساء التي كانت شائعة عند الفرس من أقدم الأزمنة أخذت تنفشي بين الطبقات الإسلامية في عهد « الوليد الثاني » وذلك أن أخلاقه وطباعه شجعتا على انتشار تلك العادة ، كما أعان الاعتزاز بالكرامة والتمسك بالتقليد على نقلها إلى تربة الشام المتجانسة ، ونستطيع أن نقول إن استهتار هذا الخليفة بالتقاليد الاجتماعية حداً بالناس إلى الاحتياط من

(١) كذلك معاوية لم يشرب الخمر قط . (المغرب)

الاعتداء الخارجي ، ومثل هذه العادة إذا ما سرت بين الناس تطورت إلى تقليد مقدس ، واعتقد الجمهور بأن الأسوار والحراس أضمن لحماية الحرائر من تحميلهن بنبل العاطفة وصفاء الفؤاد . ولكن المرأة برغم تلك الظروف القاسية التي أحاطت بمركزها بقيت حتى خلافة « المتوكل » عاشر الخلفاء العباسيين تتمتع بقسط وافر من الحرية ؛ إذ لم يكن الوهن البيزنطي ولا الترف الفارسي قد قضيا بمد على سداجة ابن الصحراء وحرسته ، ولهذا كان الآباء يلقبون في مواقف التبجيل بأسماء بناتهم الجليات^(١) ، ويفتخرون بذلك أيما افتخار ، كما كان الرجال يخوضون غمار الحروب وهم يهتفون بأسماء أخواتهم أو حبايبهم ؛ وكانت الفتيات المثقات يجالسن الرجال دون أن يظهر عليهن أى ارتباك أو إحساس غير شريف^(٢) ، كذلك كن يستقبلن الأضياف دون أدنى خجل أو وجل . وعلى الجملة كن يعرفن قيمة أنفسهن ، ولهذا كان المجتمع يقدرهن حق قدرهن . وإنا لنجد الأدب العربي زاخراً بأخبار مثل هؤلاء النساء ، ومصدراً لذلك نسوق الأمثلة التالية . قال كاتب^(٣) مشهور : إني حججت فلما صدرت عن الحج تيمت منها من المناهل وإذا ببيت في ناحية من الطريق فأنحت بفنائها . فقلت : أنزل ؟ فقلت ربة البيت : نعم . فقلت : وأدخل ؟ فقلت : أجل . فدخلت فإذا جارية أحسن من الشمس ، فجلست أحدثها وكأن الدرينثر من فيها ، فبينما أنا كذلك إذ خرجت عجوز مؤتررة بعباءة ، مشتملة بأخرى ، فقلت : يا عبد الله ! ما جلوسك هنا عند هذا الغزال النجدي ، الذي لا تأمن جماله ، ولا ترجو نواله ؟ فقلت لها الجارية : « أى جدة ! دعيه يتمل »^(٤) .

الحرفاء

(١) كأي سلى وأبي ليلي الخ .

(٢) وكان الشريف الرضى عن هذه الحال بقوله :

عفاي من دوت التقي زاجر وصوتك من دون الرقيب رقيب

(المرب)

(٣) هو محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب اعتلال القلوب عن محمد بن

سلى الضبي . (٤) ابن خلكان ص ١٤١ ج ٢ .

وقال « المينى » فى معرض الكلام عن النساء : « كنت أنزل على بعض العرب إذا حججت . فقال لى : هل لك إلى أن أريك خرقاء صاحبة ذى الرمة فقلت : إن فعلت فقد بررت ؛ فتوجهنا جميعاً نريدها ، فمدل بى عن الطريق قدر ميل ، ثم أنبنا آيات شعر فاستفتح بيتاً ففتح له ، وخرجت امرأة طويلة حسنة بها قوة فسلمت وجلست فتحدثنا ساعة ، ثم قالت لى : هل حججت قط ؟ قلت : لا ، غير مرة . قالت : فما منعك من زيارتى ؟ أما علمت أنى منك من مناسك الحج . قلت : وكيف ذاك ؟ قالت : أما سمعت قول ذى الرمة :

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضحة اللثام ؟ »

كذلك ذاع فى أوائل العهد الأموى اسم السيدة « سكينة » بنت الحسين شهيد كربلاء ؛ وكانت سيدة نساء عصرها ومن أجل النساء وأظرفهن وأحسنهن أخلاقاً ، وكان منزلها بمثابة ندوة يقصدها الشراء والفقهاء والعلماء والفضلاء على مختلف طبقاتهم ، وكانت تلك المجتمعات تتألق وتزدهر خاصة بتعليقاتها السديدة ومأثور كلامها الفياض . وكانت أم البنين زوج الوليد الأول وأخت « عمر الثانى » تعد من أشهر نساء عصرها ، وكان لها على زوجها نفوذ لا يقاوم استعملته لخير الشعب ورفاهيته ، والنصيحة التى ألقته على « الحجاج » مشهورة فى التاريخ ؛ إذ يقال إنه وفد ذات مرة على الوليد وأشار عليه بالتخلص من نفوذها ، فلما بلغها نصحه طلبت إلى الخليفة أن يوعز إليه بالتسليم عليها ؛ ولما مضى الحجاج إلى جناحها الخاص أهملت شأنه طويلاً ثم أذنت له بعد أن كاد يئأس من المثل بين يديها ، وسألته عن النصيح الذى أسداه إلى الخليفة ، فلما أراد أن يتخلص من الجواب ألقت عليه درساً بليغاً لم ينسه قط طوال سنى حياته ، وسردت عليه جميع أعماله وصارحته بقولها : إنه هو الذى حرض أمير المؤمنين على ارتكاب تلك الأعمال القاسية التى ذهبت صحتها فخبه من أعظم المؤمنين شأناً ، وأبدهم أثراً

وإنه وإن كان نابغة الأسرة إلا أن نبوغه يمتاز بالشر لحسب ، ثم نعت عليه جبنه وأمرت وصيقاتها بطرده من حضرتها .

وكانت النساء العربيات مولعات بالشعر واستظهاره كما نبغ الكثيرات منهن في نظم القصائد الرائعة التي تمتاز بصدق الشعور ، وجزالة النسيج ، وعفة المقال .

الصالحة رابعة
المدوية

كذلك كانت « أم الخير » بنت إسماعيل المدوية البصرية مولاة آل عتيك الصالحة المشهورة من شهيرات عصرها ، وأخبارها في الصلاح والعبادة معروفة ؛ وقد توفيت عام ١٣٥ هـ ودفنت بظاهر القدس .

الملابس

لم تتطور ملابس الرجال في ذلك العصر تطوراً يذكر ، وإن كانت تختلف من حيث الجودة والتفصيل باختلاف مهنة الشخص ودرجته الاجتماعية . فكان لباس العالم الديني أو الكاتب مثلاً يختلف اختلافاً بيناً عن بزة الجندي . وكانت ثمة ملابس خاصة لركوب الخيل ، وهي عبارة عن سروال وسترة يستعاض بهما عن الملابس الفضفاضة العادية .

ومن السهولة بمكان أن يتخيل المرء تلك المناظر الخلابة والصور الفاتنة التي كانت تزخر بها شوارع دمشق عند ما كانت مقراً للخلافة ومركزاً للجيش وسوقاً للتجارة .

ولو قدر لنا أن نعيش في ذلك العصر وجسنا خلال شوارع العاصمة لرأينا أعيان الأمة ورجال الدولة متشعنين بحللمهم الغالية وقد امتطوا الجياد المطهمة يحف بهم الخدم والعبيد ، وهم مسرعون إلى بلاط الخليفة ، ولشاهدنا شيوخ البدو بملابسهم الجذابة ، والأعراب الذين لوحت وجوههم أشعة الشمس اللالحة ، متشعنين بعباءاتهم الفضفاضة وعلى رؤوسهم العقال والكوفية المخططة ذات اللون الأحمر أو الأصفر ، يحدقون بأبصارهم مسبوهم من روعة المدينة وضواها ، ولأبصرنا جموع القرويين الشاميين في أثوابهم ذات اللون القرمزي وسراويلهم

الواسعة ونعالم الحمراء المدبية ، وعماماتهم ذات اللون الأبيض أو الأزرق ، وهم يسوقون عدداً من البغال والحير والجمال مثقلة بمحصولات القرى ؛ كذلك كنا نلاقى الهاشميين ذوى الملامح الجذابة الأرستقراطية متشجين بقطائهم الطويلة يسرون بخط متزنة وهم يرمقون هذه الأنهة والفخامة بقلوب مفعمة بالأنفة والحسد ، ولراينا النساء يسرن بخط وثيدة إلى الأسواق وهن مرتديات أغلى الحلل وأنغر الثياب .

وعلى الجملة كانت تلك المناظر تؤلف في مجموعها صورة حية جذابة تدخل على القلوب منتهى درجات الغبطة والسرور !

وفي تلك الأثناء بدأ يتردد ذكر الملاعى والمناذيل التى كانوا يضعونها أثناء الطعام على صدورهم ، أو يدسون طرفها فى القفطان كما هى العادة فى معظم أنحاء القارة الأوربية ؛ وكانت الملاعى على نوعين : خشبية ذات الأيدى الطويلة ، وخزفية وكانت تستورد من الصين .

وكان العرب فى الصباح الباكر يتطلون بالصباح ، وهو طعام مؤلف من العسل والحليب ، أو من الحليب والسكر وحده ؛ أما الفطور فكان أفراد الأسرة يتناولونه عند شروق الشمس فى إحدى الغرف الداخلية ، وإذا ما انتصف النهار اجتمع أفراد الأسرة ثانية فى غرفة الاستقبال لتناول الغداء ؛ وقد جرت العادة أن تدعى الأضياف وتولم المآدب فى مثل ذلك الوقت من النهار ؛ أما العشاء فكانوا يتناولونه بعد صلاة العصر على مائدة كانت تغطى بالقماش الأبيض وتصف عليها أكواب اللبن أو الماء ، ثم يقدم إليهم صحاف الشواء وأطباق الخضرا والفاكهة ، فإذا ما أصابوا كفايتهم انتقلوا إلى غرفة أخرى لأداء فريضة الصلاة وتزجية المساء بأطيب الأحاديث وأشهر السمر . ومما يلاحظ أن القوم فى تلك الأثناء أفرطوا كثيراً فى منع اختلاط الجنسين نظراً لازدياد التأثير البيزنطى والفارسى على الحياة الاجتماعية .

الرقيق

ومن الصعب أن نطلق كلمة رقيق على من يجوز تسميتهم كذلك في العالم الإسلامي ، إذ أن النبي (ص) نهى عن استعباد الناس والمتاجرة بهم ، كما منع إقصاء الأطفال عن والديهم ، وأمر بإطعامهم وكسائهم ومعاملتهم بالحسنى ، وأجاز اقتداءهم وتحرير رقابهم بكل ما وسعوا ؛ ولكن الأرقاء بالرغم من كل هذه الرعاية أثروا تأثيراً سيئاً على الحياة الاجتماعية الإسلامية ، إذ ساعدوا على انحطاط مستوى الحياة الفكرية والأخلاقية . كذلك بدأت تظهر في ذلك الحين ظاهرة سيئة أخرى ، وهي أن العرب المستوطنين في البلاد الأجنبية راحوا يتزوجون من الشعوب المغلوبة ، ولا يخفى ما كان لهذا التزاوج من التأثير على مستقبل الشعب ، إذ أن المرأة التي تنتمي إلى الجنس الرقيق كالقوط والفرنج والفرس مثلاً كانت تنجب نسلاً رقيقاً ، في حين كانت المرأة التي تنسب إلى شعب منحط كالأتوبي تأتي بنسل منحط مثلها .

الآداب

أما الأدب في العصر الأموي فلم ينل من التشجيع ما نالته الموسيقى والفنون والشعر ؛ ومع أن القضاة والعلماء لاقوا في عهد « عمر الثاني » التشجيع والتقدير الكافيين ، إلا أن الخلفاء الأمويين لم يشتهر أحد منهم في العلم أو الأدب غير خالد^(١) بن يزيد الأول .

٦٦١ — ٧٥٠
الفرق الذهبية
والفلسفة

كذلك لم يظهر مذهب ممين في عهد الدولة الأموية كما ظهر في العصر العباسي ، ولم تكن قد تألفت بعد هيئة من العلماء الذين يتمكنون — في سبيل مصالحهم الشخصية — من إجبار أولى الأمر على الامتثال لفتواهم ؛ أما الانقسام فلم يكن يعدو الآراء السياسية المتسمة بنزعة الأسرة الحاكمة ، كذلك لم يكن مدار الخلاف بين الفرق والتشيع سوى الإمامة أو الزعامة الروحية في الإسلام ، إذ كان الأموي يدعى بأن الإمامة مقتصرة على أسرته ، بينما متشيعو آل البيت

(١) كان عالماً في الطب والكيمياء وله عدة تأليف في هذه العلوم . وقد توفي عام

يرونها حقاً من حقوقهم ، في حين كان العباسيون يدعون بوجود حصرها فيهم والحوارج يذهبون إلى أنها اختيار من الأمة دون مراعاة للنسب . وقد كان الأمويون يتمسكون بمبدأ أساسي ، لا يحدون عنه قيد أنملة وهو بنف على أولاده . ولم تتخذ الآراء الدينية اتجاهاً فلسفياً إلا في العهد الفاطمي . ولا مشاحة أن انتشار العلم في ذلك الحين قد ساعد على فك الفكر من عقالة ، فأصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كل حاضرة من حواضر العالم الإسلامي ، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الذي تزعم تلك الحركة هو حفيد « علي بن أبي طالب » المسمى بالإمام « جعفر » والملقب « بالصادق » ، وهو رجل رحب أفق التفكير ، بعيد أغوار العقل ، ملم كل الإلمام بعلوم عصره ، ويعتبر في الواقع أول من أسس المدارس الفلسفية المشهورة في الإسلام ، ولم يكن يحضر حلقاته العلمية أولئك الذين أصبحوا فيما بعد مؤسسي^(١) المذاهب الفقهية فحسب ، بل كان يحضرها أيضاً طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الأنحاء القاصية ، ويعد الإمام « حسن البصري »^(٢) مؤسس المدرسة الفلسفية في مدينة البصرة ، وواصل بن عطاء^(٣) واضع مذهب المعتزلة من تلاميذه الذين نهلوا من معين مدرسته الفياض ؛ وقد عرف واصل والإمام العلوي بأنهما يعتقدان بحرية إرادة الإنسان ، كذلك كان يزيد الثالث وأخوه إبراهيم ومروان الثاني من المعتزلة . ويلاحظ أن ثلاثة من علماء دمشق : معبد الجهني ، وغيلان الدمشقي ، وأبيونس الأسواري ، ذهبوا أبعد مما ذهب إليه واصل في تأييد حرية إرادة^(٤) الإنسان المطلقة . أما جهم بن صفوان فكان يقول بالقدر^(٥) .

(١) كآبي حنيفة والإمام مالك .

(٢) توفي في رجب سنة ١١٠ هـ (تصريح الأول سنة ٧٢٨) .

(٣) ولد سنة ٨٠ هـ (٦٩٩ - ٧٠٠ م) وتوفي سنة ١٣١ هـ (٧٤٨ - ٧٤٩ م) .

(٤) سنو في هذا الموضوع حقه عند الكلام على المأمون .

(٥) يقول المفريزي في الجزء الرابع من خطته : « إن أول من قال بالقدر في الإسلام

هو (معبد بن خالد الجهني) » . (المرب)